

الإشارات المكانية في رواية زرايب العبيد

Search keys The reference, the story of Zrayeb Al-Abeed, the Alive place,
.the hostile place

أ.م.د. عبدالله بيرم يونس (العراق)

جامعة سوران _ كلية الآداب
Dr.abdullah1979@yahoo.com

م.م. أمير أحمد حمد أمين (العراق)

جامعة سوران _ كلية الآداب
aranamirahmed@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/04/30 تاريخ القبول: 2020/11/05 تاريخ النشر: 2020/11/30

ملخص الدراسة:

لم يكن المكان مجرد عنصر بناي تكأت عليه الكاتبة الليبية نجوى بن شتوان لتتحدث عن فترة ماضية تمتد في عمق التاريخ الليبي منذ العثمانيين وصولاً لحكم الاستعمار الإيطالي، والمنطقة بنغازي وما حولها من بيوت الصفيح المتناثرة التي يسكنها العبيد والمسماة زرايب العبيد، وإنما احتوى هذا المكان على معان نفسية واجتماعية وسياسية متعددة، فقد تحركت فيه الشخصيات وتطورت من خلاله الأحداث، ونمت به البنية السردية، فكان المكان في زرايب العبيد متفاعلاً تفاعلاً كبيراً مع الشخصيات ونموها والأحداث وتطورها، متجاوزاً بذلك قيمته كإطار جغرافي، ليدخل في علاقة جدلية متنامية مع الشخصيات والأحداث.

من هذا المنطلق قمنا بدراسة المكان ودلالته في رواية زرايب العبيد اعتماداً على المناهج النقدية الحديثة التي تهتم بدراسة العلامات والرموز. مفاتيح البحث: الإشارة، رواية زرايب العبيد، المكان الأليف، المكان المعادي.

Study summary

The place was not only a structural element that the Libyan writer Najwa bin Shtawan leaned to talk about a past period extending in the depth of Libyan history since the Ottomans to the rule of Italian colonialism, and the area Benghazi and the surrounding scattered shanty houses inhabited by slaves called the slaves of the slaves, but this place contains meanings Multiple psychological, social and political, in which the characters moved and the events evolved through it, and the narrative structure grew in it, so the place in the cells of the slaves interacted a great interaction with the characters and their growth and events and development, exceeding its value as a geographical framework, to enter into a relationship of controversy Of growing with the characters and events.

From this standpoint, we studied the place and its significance in the novel Zrayab al-Ubaid, based on modern, ancient curricula that are concerned with the study of signs and symbols.

أولاً: مفهوم الإشارات المكانية

يعتبر المكان من أهم مقومات كل عمل روائي، ولقد اهتمت حقول معرفية مختلفة بالمكان، كل من وجهة نظر حسب توجهه، فمن الجيولوجيا إلى الجمال إلى الفلسفة إلى الفكر والأدب، ولقد أسهمت هذه التوجهات والرؤى المختلفة للمكان في محاولة فهمه العميقة، والوصول إلى كنهه.

وفيما تخص الرواية، فيعد المكان ركيزة أساسية يقوم عليها بنية الرواية، فلا يمكن تخيل نص روائي بدون مكان، لهذا حاول الباحثون والنقاد دراسة المكان، ومدى مشاركته في صناعة النص، وقدموا تصنيفات مختلفة للأمكنة، وذلك انطلاقاً من تحليل عدة نصوص روائية، فالمكان هو الفضاء الذي يحوي الأحداث الروائية ويقوم بالقبض على أفق القارئ، من خلال جماله، أو غرابته، أو حتى وحشته، فيصبح للمكان سلطة على القارئ تقبض على مخيلته، وتمارس عليه سلطة التأثير، فيحس بوجود هذا المكان، حتى ولو كان من صنع الخيال.

ويتخذ المكان في الرواية أشكالاً مختلفة ويتضمن معاني عديدة، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان الهدف من وجود العمل الروائي كله، حيث أن له أهمية كبيرة في الرواية، بما فيه من حوادث وشخصيات وانفعالات، فيكون بذلك هو نفسه المساعد في فهم معالم الرواية. وتساعد معرفة مكان التلفظ على تأويل الخطاب تأويلاً صحيحاً، وفهم المعنى، وبلوغ قصد المتكلم، وفي هذا يقول أحد الدارسين: "ليس الكلام متعاملاً فحسب مع عنصر المكان، وإنما هو حبيس في سياجه"¹، فلا يكفي اكتمال الخطاب لغة لفهم ومعرفة مراد المتكلم، إذ لا بدّ من معرفة المرجع المكاني لما له من أهمية في تحديد المواقع.

وعند الحديث عن المكان في الرواية نجد اهتمام الدارسين ورؤيتهم على أنه طلل يمثل في عين الكاتب منظراً جديداً وفي نفسه إحساساً متميزاً فيتحول المكان من دلالة الجغرافية إلى أطلال شخصية لا يمكن فهمها والوعي بأهميتها إلا بالعودة إلى السياق الذي وردت فيه، والمتمثل في حياة الكاتب أو الكاتبة وما اعترأها من ظروف فرضت أهميتها في استعمال الدلالة السياقية للمكان لتوضيح مقصود الكاتب أو الكاتبة.²

والإشارات المكانية هي عناصر إشارية تشير بها إلى الأماكن التي تفاعل معه الخطاب عن طريق استعمالها وتفسيرها أو إيمانها إلى معرفة مكان المتكلم ووقت التكلم، وقد يكون المكان المحدد في كلام المتكلم معروفاً للسامع أو المخاطب، ويكون إحساس السامع بالمكان أسبق من إحساسه بالزمان غير أن إحساس الإنسان بالمكان يقترن بأبعاد حسية مادية وإحساسه بالزمان يقترن بأبعاد ذهنية شعورية، ولتحديد المكان أثر في وجوده وكيونته في اختيار العناصر التي تشير إليه قريباً أو بعداً أو جهة داخل النص.³

وتختصّ الإشارات المكانية "بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقاً من الحقيقة القائلة إن هناك طريقتين رئيسيتين للإشارة إلى الأشياء هما: إمّا بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى"⁴. ومن هذا التوجه كان لاختيار العناصر التي تشير إلى المكان في الخطاب أهمية كبرى؛ لأنه عن طريقها يمكن الإشارة إليه مادياً ونفسياً، قريباً وبعداً وهو ما تكشفه المشيرات "هذا"، وذاك "و هناك"، وهناك "فالعلاقات الدلالية لهذه المشيرات يحددها المتكلم الذي يستعملها وفق قواعد دلالية مرتبطة بها ويعتمد فهم المتلقي لها على العلاقة الإشارية التي تربطها مع مركز المكان المشار بها إليه وفق سياق معين."⁵

وأكثر الإشارات المكانية التي تستخدم في النص الأدبي هي أسماء الأماكن مثل: المدينة، القرية، البيت، القبور، الصحراء... إلخ. وأسماء الإشارة مثلاً: ذا وذاك، للإشارة إلى القريب أو البعيد، وهنا وهناك وهما من ظروف المكان التي تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم وجميع ظروف المكان مثل فوق، تحت، أمام، خلف،... إلخ. كلهم عناصر إشارية لا يتحدد معناها إلا حسب موقع المتكلم. 6

وإذا أختار شخص ما، عمل أو فعل شيء في مكان محدد بالنسبة له فإننا لا نعرف هذا المكان بالملفوظ، مثل: (أشتري القماش هنا أو هناك).

إن ظريفي "هنا" و "هناك" في هذا النص غير كافٍ لتحديد المكان بشكل واضح، فربما المنشيء لهذا القول أراد المدينة أو المعمل أو الدكان أو مكان آخر، ففي مثل هذه الحالات يحدث الإخفاق بدلاً من النجاح لعدم معرفة القصد، وقس على ذلك الظروف المكانية الأخرى بمختلف أنواعها وبدلالاتها المتعددة. 7

إن استخدام الظروف المكانية في الرواية، لها علاقة وطيدة بعمل أي روائي، لأنه لا يخلو كلامه من هذه الظروف التي لها تأثير على طاقات المبدع ليعبر بها عن المقاصد أو توظيف أعمال الروائي سواءً عند تقديمه للأماكن في الحوار الذي يجري بين شخصيات الرواية أم في تواصل العام لأحداث الرواية.

ويظهر دور الإشارات المكانية في خطاب الكاتبة نجوى بن شتوان من خلال عنوانها، فقد بدأت الكاتبة بهذا التوظيف للمكان في روايتها من العنوان "زرايب العبيد" - الذي يعتبر علامة لغوية تعلق النص، ليثير دهشة القارئ وفضوله، وليساهم في توضيح دلالات النص واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية.

وعنوان الرواية كذلك يوجي إلى القارئ أن المكان يشكّل قيمة مركزية في فصول الرواية، ويوجي كذلك إلى جانب إنساني وقضية اجتماعية مؤلمة؛ فهو مكون من كلمتين: زرايب وقد ورد في اللغة: زرب الماشية في الزريبة: حظيرة الماشية، زريبة البقر، زريبة الغنم، أما لفظة العبيد فالعبد هو خلاف الحر والجمع عبيد. 8

إن الزرائب التي هي في العموم أماكن إقامة الحيوانات، والتي وصفت في الرواية بالوضاعة والاتساح "حتى أنه تفوح من بعض أماكنه الروائح النتنة، فيما تمتلئ أجساد أطفاله بالدود

والقمل والقذارة، وحتى الصابون لا يشاهد في هذا المكان، بل يظل يحلم الآخرون به ويسمعون وصفاً له ويتداولونه في الخفاء، ونرى فيه إحدى الفتيات تحاول سرقة مرآة تعكس محياها لتتعرف على ملامح وجهها الذي يفترض عدم التعرف عليه. إنه إلغاء تام لإنسانية سكان الزرايب وأنوثة نسائه⁹ كانت كذلك أماكن لعيش الإنسان، ممن وصفوا بالعبيد من ذوي البشرة السوداء، فبعدما فروا من أسيادهم بغية التخلص من الأوضاع المزرية التي يعيشونها ويمرون بها، لم يجدوا ملاذاً يلجؤون إليه غير الزرايب، لتربية أبنائهم والابتعاد عن التصنيف وعالم الأحرار العنيف. فالمكان إذن في الرواية له حضور واضح يضجُّ فضاؤها به، ويتلون ويتشكَّلُ بألوانٍ شتى يدركه القارئ ويتعايش معه.

ومن خلال قراءتنا لرواية زرايب العبيد، تبين لنا أن الكاتبة ومن خلال توظيفها للمكان فيها قد أشارت إلى نوعين من المكان في هذا العمل السردى، مكان أليف ومكان مُعادي، ومن خلالهما أشارت الكاتبة إلى عدة أمور وقضايا إنسانية سنتناولها في القسم الثاني من هذه الدراسة.

ثانياً: الإشارات المكانية في رواية زرايب العبيد

الأول: الإشارة إلى المكان الأليف.

المكان الأليف هو المكان الذي تشعر فيه الشخصيات بالألفة والأمان، وقد وصف غاستون باشلار هذا المكان بأنه "مكان المعيشة المقترن بالدفء والحماية والحنان ويمنح هذا المكان الحلم والتذكر والسعادة"¹⁰.

وفي رواية زرايب العبيد ثمة إشارات إلى أماكن عدّة تحدثت عنها الكاتبة بوصفها أماكن أليفة بالنسبة لشخصيات الراوية وبالنسبة لفلسفة الكاتبة أيضاً، ومن هذه الأماكن:

_ زرايب العبيد

ذاك المكان الذي أجبر العبيد على أن يختاروه مكانا للعيش والاستقرار بحكم الظروف القاسية التي حرمتهم من اتخاذ البيوت، وذلك بسبب بشرتهم السوداء التي تميزوا بها عن باقي البشر، وعلى الرغم من عدم توفرها على الهدوء والاستقرار وحقارة العيش فيها، إلا أنها حققت لأصحابها حدا أدنى من الراحة باعتمادها على التحكم فيهم وقهرهم.

وقد أوردت الكاتبة مشاهد كثيرة من داخل الزرايب بينت من خلالها كيف أن العبيد عاشوا فيها مطمئنين وشعروا بالدفء والحنان، فما هي الكاتبة تلتقط لنا من خلال عدسة كاميرتها بعضاً من مظاهر البهجة والفرح التي كانت تعم الزرايب، خاصة أثناء الليل، فتقول:

"الجميع ينسجم في الليل حين تنتهي الأعمال ويؤوبون للزرايب، ما أن يغني أحدهم حتى ينضم له آخر وينضم آخر للآخر، فتتسع الدائرة ما بين مؤدٍ ومصفق وراقص إلى أن تختصر الزرايب نفسها في تجمّع بالكاد ينفض من حلقات الرقص والغناء والصخب الجميع يتداوى بالأغاني ويحتفي بالألحان".¹¹

هكذا تبدو الزرايب ليلاً مكان الراحة والأنس والفرح والاجتماع، فالعبيد في المساء إليها يؤوبون وفيها يجتمعون ومن الغناء والألحان يحتفون ويتداون من كل مشاعر الذل والهوان الذي كانوا يلاقونه أثناء عملهم خارج الزرايب.

وفي موضع آخر من الرواية تناولت الكاتبة الأجواء التي تسودها المحبة والتعاون المادي والمعنوي بين سكان زرايب العبيد الذين يشاركون فرح وسرور بعضهم البعض في الزواج، فـ"حين تزوجت ياقوته بنت عبيد الله ومخزومه شابا من عبيد الزرايب، أهدتهم درمه مجيئها لإحياء الحفل. كان الإحتفاء بها عظيماً، فدرمه التي انتقلت للمدينة لم تنس قومها ولم تتوقف عن مساعدة المحتاج منهم بما تحصل عليه من نقود نظير غناء يمتد إلى الفجر ويتواصل أياماً".¹²

تشير الكاتبة إلى تعلق درمه بالزرايب مع أنها انتقلت إلى المدينة، فهي لم تنس هذا المكان ولم تنس ساكنيه من الفقراء والعبيد، لهذا فهي تقدم لهم المساعدات، وهذا فيه إشارة إلى روح المحبة والتعاون التي كانت تسود ساكني الزرايب.

وحينما قام الجنود والأطباء الإيطاليون بحرق الزرايب بحجة أن فيها وباءً قاتلاً، أشارت الكاتبة على لسان عتيقه شدة تعلق العبيد بالزرايب والأسباب التي دعتهم إلى حماها وتفضيلها على بقية الأماكن، تقول الكاتبة:

" - يا لها من مسكينة! لا أم، ولا أب، لا عائلة! (قالت الممرضات لعتيقه، حينما فقدت أمها أثناء اندلاع النار في الزرايب).

(أجابت عتيقه): ليس فقدي لعمتي التي هي أمي فقط، بل للزرايب بكل ما فيها طفولتي، عملي، حياتي، عمّاتي، صديقاتي، البحر، غربال الرمل الكبير، الحب، الغناء، الرقص، الدموع، العبد التناز، مفتاح الآتي دائما من بعيد، وقلب بوقا ... لا يمكن أن يتلاشى الزرايبُ مني أو تحترق. 13

فهذه الملفوظات (بكل ما فيها: طفولتي، عملي، حياتي، عمّاتي ...) التي ساقها الكاتبة على لسان عتيقه تشيرُ إلى أهمية هذا المكان في نفسها ونفس كل ساكني هذا المكان، فهي لا تبكي لأجل أمها تعويضه فقط؛ بل وتبكي كذلك على أمّها الثانية التي أتت عليها النار، هي الزرايب بما فيها من براءة الطفولة واللهو والحب والغناء والدموع والتعاون وكل شيء، هذا المكان الذي عاشت فيه عتيقه وغيرها من العبيد والذي شعروا فيه بالدفع والحماية والطمأنينة، لا يمكن أن يتلاشى من ذاكرتها أو يحترق، لهذا كان البكاء والحزن من عتيقه.

وفي نهاية الرواية نجد الكاتبة تشيرُ إلى الزرايب على لسان جاب الله وهو ينصح تعويضه بالذهاب إليها وعدم البقاء في بنغازي بقولها:

" - لا وقت للدموع، هيا، لطالما واجهت الكثير من الصعاب وأنت الآن إنسان طليق، يجب أن تهربي بحياتك ولا تعودى إلى شيء مما مضى أبدا. كثيرون يفرون بلا بطاقات عتق ويختبئون في زرايب العبيد بأسماء وهيئات جديدة لئلا يتعقبهم أحد. إنها فرصتك الثمينة، الحرية أو اللاحرية، لن تخسري بعدها شيئا. إن قبضوا عليك عدت جارية، وإلا فأنت حرة إلى الأبد. العبيد هناك في حماية عبيد مثلك، لن تكوني خائفة منهم في أسوأ الأحوال، هم يساعدون بعضهم أكثر بكثير مما لو كانوا عبيد عائلات. هنا العبد يخشى على حياته فيضحى بالعبد الآخر، وقد يُرقى على عظام عبد آخر. إنك لم تكوني هنا بمأمن حتى بين أبناء جلدتك ... العبيد الفارّون من الغرب والجنوب أسماؤهم تختلف عن أسماء العبيد هنا، احتمي بالمسافة وبأولئك الذين أتوا إلى هنا ويشبهونك، ستجدين بينهم أناساً يساندونك وتساندينهم" 14.

توظف الكاتبة الحديث عن المكان باستعمال أسماء الإشارة الملازمة للظروف (هنا، وهناك) كثنائية ضدية، (فهنا) كما ورد في سياق النص إشارة إلى مدينة بنغازي التي كانت تعاني فيها تعويضه (الشخصية الرئيسية في الرواية) من الصعاب، وكادت أن تخسر حياتها مرات كثيرة، فهي لم تكن بمأمن على نفسها ممّن كان حولها سواء كانوا من السادة البيض أو حتى العبيد من أمثالها، لهذا كان

البديل لتعويضه أن تذهب إلى (هناك) المكان البعيد من بنغازي ليس بالمسافات وحسب؛ بل في التعامل ونمط العيش كذلك، (فهناك) إشارة من الكاتبة إلى الزرايب، فهي ملاذ وأمل كل عبد يعاني من قسوة وظلم البشر، وكأنّ ثنائية هنا وهناك تشبه إلى حدٍ ما ثنائية الداخل والخارج؛ مع أنّ الداخل لا يمكن أن يكشف إلا برؤية الخارج لهذا الداخل، هذا الخارج هو الخارج الاجتماعي والثقافي السيء بكثير من داخل الزرايب.

لهذا كانت نصيحة جاب الله لتعويضه أن تتجه إلى الزرايب وأن تبدأ حياة جديدة مع أولئك الذين مرّوا بنفس ظروفها، حيث الكل متساوٍ في المعاناة والظلم، لذا سيؤاز بعضهم بعضاً لا شيء إلا لأجل البقاء على قيد الحياة في مكان أقل ما يوصف بأنه مكان معدوم بانعدام الإنسانية فيه.

فالكاتبة تُشير من خلال (هنا # هناك) إلى مكانين متضادين عاشتهما تعويضه وغيرها من العبيد، مكان الأسياد المتمثل بمدينة بنغازي، ومكان العبيد المتمثل بالزرايب، والمكانان إذا اجتمعا معاً في نفس المدرك، لأن كان شعوره بهما أتمّ وأوضح، لأنّ الحالات النفسية المتضادة يوضّح بعضها بعضاً، وبضدّها تتميّز الأشياء، وكأنّ الكاتبة تريد أن توصّل رسالة إلى القارئ مفادها أن العبيد عاشوا المكانين، إلا أن الاختيار في النهاية كان لمكان الزرايب لا لشيء إلا لأنه أكثر أمناً واحتراماً لكرامة الإنسان.

_ بيت العبيد

ومن الأماكن الأليفة التي أشارت إليها الكاتبة في متن روايتها بيت العبيد، حيث يشكّل البيت للإنسان المكان الملائم الذي يبرز قيم الألفة، ومظاهر الحياة التي تكاد تكون مُنسقة في ضوء حركة الحياة، ومدى تعايش الشخصيات وتفاعلها في حيّز المكان نفسه. فقد أشارت الكاتبة على لسان عتيقه هذه الألفة التي وجدت في بيوت العبيد بقولها: "كان مفتاح فتى أبيض أزرق العينين، وكنتُ سمراء لوزية العينين، وكانت عمتي صبريه زنجية سوداء، جمعتنا البراقة 15 نفسها وألف بيننا الشعور بأننا عائلة واحدة يتداعى فيها الواحد للآخر".

تشير ملفوظ "جمعتنا البراقة نفسها وألف بيننا الشعور بأننا عائلة واحدة" أن هؤلاء العبيد كانوا سعداء في البيوت التي بنوها من أشياء بسيطة _ كما هي كل بيوت الزرايب _ ومصدر السعادة كانت في هذه البيوت نابعة في تصوّر الكاتبة _ وهي تتكلم على لسان إحدى شخصياتها _ من شيئين أشارت إليهما بقولها:

الأول: عدم التمييز العنصري (مفتاح أبيض، عتيقه سمراء، صبريه سوداء).

والثاني: روح التعاون والاهتمام (يتداعى فيها الواحد للآخر).

فالتشكيل الفضائي للمكاني هنا في هذا النص ينسجم مع مزاج الشخصيات وطبائعهم ويكشف عن الحالة الشعورية الجميلة التي تعيشها الشخصية والتي تساهم في التحولات الداخلية التي تطرأ عليها. وفي مشهد آخر ترصد لنا الكاتبة مشاهد الفرح والسرور من داخل بيت عتيقه وهي مع زوجها وأولادها، فتقول: "كان صباح يوم الأحد وكانت مشغولة بالطبخ، فيما زوجها جالس في باحة البيت يدخل غليونه ويقرأ كتاباً، وأحياناً يضع الكتاب جانباً ويلعب طفلة صغيرة سمراء تبدوا كحفيدته".¹⁶

تُشير الكاتبة إلى بيت آخر لعتيقه - حينما كبرت وتزوجت - حيث الحياة طبيعية فيه، والأمور تسير بهدوء واطمئنان، فالزوجة مشغولة بأمور البيت والزوج يقضي أوقاته بما يسره داخل هذا البيت من شرب الغليون وقراءة الكتاب وملاعبة الأطفال، لهذا نجد تعلق عتيقه ببيتها وحبها له لأنه بالنسبة لها مصدر سعادتها وأنسها، تقول الكاتبة:

"عتيقه تحب بيتها نظيفاً متجدداً وتهتم بأدق التفاصيل فيه. قال لها إنه سيكلم الدهان البسيوني ويتفق معه على الأجرة والتوقيت ليمت العمل. ألقمته تمرّة في قلبها لوزة وقالت له:

- أنت عجوز، تفهم مباشرة كيف تُرضي زوجتك بلا جدلٍ طويل، لذلك هي ستظل تطعمك التمر باللوز كما تحبه"¹⁷

رغم أن البيت بسيط وفي مكان متواضع إلا أنه بالنسبة لعتيقه هو أفضل بكثير من تلك البيوت التي كانت تقطنه الأسىء، لأن فيه راحتها واستقرارها هي وأفراد عائلتها، وتُشير ملفوظات من أمثال: "وتهتم بأدق التفاصيل فيه" و"تفهم مباشرة كيف تُرضي زوجتك بلا جدلٍ طويل" كيف أن هذا البيت أصبح شغل شاغل عتيقه، ولسان حالها تقول أن العبيد كذلك لهم الحق في العيش الكريم مثل البقية، وأن حيم للحياة والسعادة لا يقل عن الآخرين، ولذلك تميل الرؤية الأساسية لفضاء البيت، وإدراك التعبيرات المجازية التي يتضمنها البيت بعدّه مصدراً لفيض المعاني والقيم، فالبيوت والمنازل تكون نموذجاً أساسياً لدراسة قيم الألفة ومظاهر الحياة الداخلية التي تعيشها الشخصيات، فبيت الإنسان امتداداً له كما يقول ويليك: "فإنك إذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان، فالبيوت تعبر عن أصحابها، وهي تفعل فعل الجوّ في نفوس الآخرين الذين يتوجّب عليهم أن يعيشوا فيه".¹⁸

_الإرسالية

ومن بين الأماكن الأليفة التي أشارت إليها الكاتبة مستوصف الإرسالية اليوسفية، ذاك المكان الذي كان يقدم المعونات الطبية والإغائية للفقراء والمحاجين خاصة أهل الزرايب من العبيد، وكان مكاناً أيضاً للقراءة والتعلم، لهذا نجد أن العبيد تعلقوا به وأحبوه أكثر من مكان آخر، تقول الكاتبة:

"كان ذلك يسيراً وسهلاً في ذلك الحين، أطفال كثر أيتام، سود وغيرهم، تعهدتهم الإرسالية، علّمتهم القراءة والكتابة وقواعد السلوك وآدابها، مسحت منهم أشياء ووضعت أشياء أخرى أكثر رقيّاً وتمدناً، أحبا الأطفال والتزموا بها حتى أصبح الفرق واضحاً بين الإنسان الذي أشرفت على إعداده الراهبات والإرساليات وبين الآخر الذي نشأ في عائلة فقيرة." 19 إن الدور الكبير الذي قامت به الإرسالية والمتمثل باحتضان الصغار من البيض والسود على السواء دون التمييز بينهم كما كان معهوداً خارج الإرسالية آنذاك، وتعليمهم القراءة والكتابة والآداب العامة، لهو دور كبير انطبع في أذهان الكثيرين من أهل الزرايب، حتى أنهم لمسوا هذا الدور على سلوك أبنائهم. وكأني بالكاتبة تريد أن تشير من خلال الأفعال التي وظفتها في هذا الملفوظ: "مسحت منهم أشياء ووضعت أشياء أخرى أكثر رقيّاً وتمدناً، أحبا الأطفال والتزموا بها" أنه بالإمكان للعبيد السود أن يتغيروا، وأن يكونوا أكثر رقيّاً وتمدناً، إذا ما توفرت لهم البيئة المناسبة كما هي في الإرسالية.

وفي الإرسالية نفسها تحدث عتيقه عن نفسها وعن بقية فتيات الزرايب فتقول:

"في الإرسالية تعلّمت الكتابة والقراءة بالإيطالية، وتعلّمت الحياكة واكتشفت أن العالم يحوي أشياء مهمة تُسعد القلب وتجعل الوقت ممتعاً، يمكن للإنسان أن يحذق عملها ويخرج بها من حياة الفقر المدقع في الزرايب. ثم لما بلغت مبلغ الفتيات قُسمت الفتيات إلى خيَاطات وممرّضات ومعلّمات، والتحقّت بفريق الممرّضات لأنني ملكت مهارات تخفيف الوجع عن الناس وأحببتُ عمل ذلك مع الأطفال خاصة، صارت لي أمهات جدد، أحببتن وتعلّمتُ منهنّ وارتبطتُ بهنّ بعد وفاة عمّي صبريه.... ومن ذلك الوقت أصبحتُ أبتعدُ عن عالم الزرايب وأدخلُ عالمي الجديد، عالم أوسع من الأول، مرتبطٌ بالإنسانية ولا دخل له بتصنيف الإنسان إلى لون أو جنس، ولا قيمة فيه لرابطة الدم، هذا هو أهمُّ ما تفتّحتُ عليه، إنني لا أملك أية روابط في مجتمع تتحكّم فيه القربى. أملكُ عقلاً وقلباً، وهو ما يتطلبه أن تكون فرداً في العائلة الإنسانية" 20

إن الذي كان ينقص عتيقه وصاحبها هو الاهتمام والرعاية، وحينما وجدوا الاهتمام والرعاية والتعلّم في الإرسالية اكتشفوا أنّ العالمَ منظوراً إليه من الإرسالية - يختلفُ تماماً كما عمّا هو موجود خارج الإرسالية من الجهل والظلم والقهر واستعباد ذوي البشرة السمراء من قبل ذوي البشرة

البضياء، لهذا وجدت عتيقه نفسها سعيدة، وأنها تقضي أوقاتاً ممتعة في الإرسالية، مما دفعها هذا المكان هي وصاحباتها إلى الحذق في أعمالهنّ والالتحاق بالفرق الخيرية التي تقدم المعونة والمساعدة إلى الآخرين.

واعتبرت عتيقه الإرساليه عالمها الجديد عالم يغيبُ فيه تصنيف البشر من حيث اللون أو الجنس، عالمٌ لا قيمة فيه للقريب ما دام ينظر للعبيد (الأخر) نظرة احتقار وازدراء، إنها (عتيقه) تمتلك الآن وبعد تخرجها من مدرسة الإرساليه عقلاً وقلباً، وهما شيئان لا ثالث لهما يجعلان الفرد أيا كان لونه أو جنسه ينتسب إلى العائلة الإنسانية.

إن ما ذكرته الكاتبة على لسان شخصيتها عتيقه في النص السابق هي تصورات عميقة للعيش الكريم على هذه الأرض، وأن إيجابية الإنسان أو سلبيته نابعة من المكان الذي يعيش فيه.

_ البحر

ومن بين الأماكن الأليفة التي أشارت إليها الكاتبة في متنها الروائي البحر بوصفه ذاكرة وهوية، وكأفق ينعكسُ على صفحاته المعرفي والأيدولوجي والوجودي. فقد غدا البحر بملامحه المميّزة، ومفاتيحه الرامزة وأبعاده المؤثرة، وحركاته اللامتناهية وأعماقه السحيقة وعلاقاته الممتدة وأنوائه وعواصفه العاتية وأمواجه المتقلبة في تجربة نجوى بن شتوان عالماً يمتلكُ خصوصيته من كونه فضاءً ممتدّاً امتداد أحلام العبيد البسطاء وتطلّعاتهم في الحياة السعيدة، تقول الكاتبة على لسان عتيقه _الشخصية الرئيسية في الرواية:

"كان البحر هادئاً تبعثر فيه قوارب الصيد الفردية وتخضب الشاطئ، أمواجه المتلاحقة كأنه لم يشاهد أحدا هنا من قبل أو يختبر حياة، قالت بعد صمت قصير وهي تشرب الهواء بأنها:

_ لا أدري إن كانت هذه الموجة هي ذاتها الموجة التي شملتني منذ أعوام قصية، ولا إن كانت الرمال هي ذات الرمال التي لعبت بها صغيرة وبنيت بها بيوتاً هشة مثل بيوتنا تسحقها الريح ويجرفها الماء" 21

يلخّصُ لنا هذا المشهد استغراب عتيقه _الشخصية الرئيسية في الرواية، بعد أن بلغت من العمر عتياً _ هدوء البحر وقلة قوارب الصيد فيه، وبأسلوب الأنسنة والتشخيص راحت تستذكره من خلال اسم الإشارة "هنا" إلى بعض أماكنه التي كانت يوماً من الأيام عامرة بالناس وبالحياة السعيدة " كأنه لم يشاهد أحدا هنا من قبل أو يختبر حياة". فالبحر بالنسبة لهؤلاء العبيد كان حياة لها طعمها الخاص، ومذاقها المميّز وإيقاعها المغاير لإيقاع الحياة على اليابسة إنها طريق الخلاص وجسر السكينة

وسبيل الراحة، ومحاولة الخروج من شرنقة الحياة الرتيبة التي كانوا يعيشونها خارج بيوتهم إلى عالم الحياة الموار الفاعل الذي لا تطلُّ فيه الأشياء جامدة ساكنة بل تتحرّك بحركة دائبة غير متوقفة أبداً. وفي موضع آخر من الرواية تشير الكاتبة على لسان عتيقه إلى البحر، وكيف كان مأوى أطفال الزرايب ومتنفسهم الوحيد، فقول: "هنا تعلّمتُ السباحة ككل الأطفال، لا نعرف كيف ولا متى وكأننا ولدنا داخل فقاعة من الماء، هنا غسلت واغتسلت وقابلت يوسف رجل حياتي". 22

إن اسم الإشارة "هنا" يُشيرُ إلى مكان البحر، ويُجسّدُ لنا ملفوظ "وكأننا ولدنا داخل فقاعة من الماء" إلى شدّة تعلق هؤلاء الأطفال بالبحر، وبقائهم أوقاتاً كثيرة فيه، وهذا فيه دلالة على أن البحر كان مكاناً أليفاً أحبه أطفال الزرايب.

وفي مناسبة أخرى من الرواية تبين الكاتبة مدى استفادة أهالي الزرايب من البحر، فكما كان البحر مصدر أنسهم وفرحهم ولعهم، كان كذلك مصدر عيشهم وقوتهم، تقول الكاتبة على لسان عتيقه أيضاً:

"يعرف مفتاح مدى حيي للبطيخ أيام الصيف عندما يملك المال، يشتري بطيخة صغيرة يضعها أسفل ثيابه ويعود بها إلى الزرايب يناديني من بعيد: إشتريتُ لك بطيخة حمراء، تعالي لنغمرها معاً في الرمال عند الشاطئ كي تبرد، كان ذلك ديدن من يبردون البطيخ بأموال البحر كما ألفناهم وكم تكون سعادتنا عظيمة فنحن نملك دلاعة لا يملك مثلها نصف سكان زرايب العبيد".

23

إن الإلفة والسعادة التي تحدث ما بين الإنسان والمكان تكون نابعة في بعض الأحيان من الفوائد التي يجنيها الإنسان من هذا المكان أو ذاك، لهذا نجد الإنسان يتعلق به ويحبه، فأهل الزرايب كانوا في ألفة مستمرة مع البحر بدليل أن ديدهم (عادتهم) أنهم في الصيف يستبردون طعامهم من خلال طمره في رمال البحر، وهذه العادة شكّلت لدى الجميع حبّ هذا المكان والتعلّق به.

ثانياً: الإشارة إلى المكان المعادي.

وهو النوع الثاني من المكان في الرواية، يشعر من خلاله الإنسان أو شخصيات العمل الفني بالألم وعدم الطمأنينة والراحة النفسية. 24 وفي رواية "زرايب العبيد" ثمة أماكن أشارت إليها الكاتبة بوصفها أماكن معادية لبعض شخصياتها، من أمثال هذه الأماكن:

_ بيت الأسياذ

حيث تتناول الرواية جانباً من انشطار المكان واستعدائه تاريخه ومستقبله، إذ فئة من الناس موقوفة لخدمة فئة أخرى، لا لشيء إلا لأنّ اللون فرض إرثه واستغلاله وبؤسه على فئة من الناس، فالعبيد السود في خدمة الأسياذ البيض، والنساء السوداوات للتسرية عن أسيادهنّ والترفيه عنهم، يصنّفن في خانة "ملك اليمين"، يحقّ لأسيادهنّ التصرف بهنّ كأشياء وبضائع، ويكون لكلّ فئة عالمها المختلف عن الآخر رغم أنّهما يعيشان في المكان والزمان نفسه.

يجعلنا العنوان للوهلة الأولى نفهم أبعاد المكان السوسولوجية، فكما نكتشف مباشرة ومن القراءة الأولى للعنوان أن ثمة «زرايب»، أو مجتمعاً خاصاً بفئة مسماة العبيد، نستنتج بقراءة ثانية تالية أن ثمة مجتمعاً آخر خارج عن تلك الزرايب، وعن جحيم ذلك المكان الإقصائي الفظيع، مجتمع حر، أو هكذا يدّعي، مجتمع يفرض قوانينه ومفاهيمه للحرية المرتبطة باللون وتشكيلاته بين الأبيض والأسود، مجتمع ينظر باستعلاء واحتقار إلى العبيد، فلا قيمة لهم ولا كرامة وبالتالي لا قيمة كذلك لمطالبهم المشروعة وغرائزهم الفطرية، نجد هذا من خلال الحوار الذي دار بين أحد السادة وبين عبده جاب الله، الذي كان يحمله عائداً إلى بيته بعد ليلة مترعة باللهو والسمر، فيقول السيد حين صارحه عبده منتهزاً ذلك الطرف الخاص برغبته في الزواج:

"قال السيد:

-أو يتزوج العبيد؟

أدار العبد عنقه الغليظة تجاه سيده وأجابه:

-أجل، أجل يا سيدي.

-أتعني أنهم يتزوجون؟

-نعم، نعم يا سيدي.

-يحسون مثلنا؟

سكت العبد فلطمه السيد لطمة خفيفة على وجهه وهو يركب ظهره:

-ها...ها أجب يا عبد السوء!

قال جاب الله:

-حاشا لله يا سيدي."25

إن هذه الملفوظات التي جاءت بصيغة الاستفهام الموجهة من السيد لأحد عبيده:

"أو يتزوج العبيد؟، أتعني أنهم يتزوجون؟، يحسون مثلنا؟" ليترك انطباعاً سيئاً عن تلك المعاملة التي كان يلاقونها العبيد من أسيادهم وهم يعملون في بيوتهم، فالسيد يتساءل سؤال المتعجب والمتهمك من عبده كيف أنه يرغب بالزواج، وكيف أن لديه إحساساً فطرياً غريزياً تجاه النساء، فالسيد في تصوره يرى أن المتعة واللهم من نصيب البيض فقط، أما العبيد السود فهم أجساد بلا أرواح خلقت للخدمة والعمل ليس إلا، وهذا استخفاف بحق هؤلاء العبيد في العيش الكريم، وإهانة كبيرة كانت تقابل في الكثير من الأحيان بالصمت والسكوت من قبل العبيد "سكت العبد فلطمه السيد لطمه خفيفة على وجهه" وإلا كان السوط والضرب من نصيبهم.

وفي بيت الأسياد كذلك نجد أنّ الغلط والسهو ممنوع من قبل العبيد، وإلا سيكون ثمنه السوط والسجن والعذاب الأليم، بل وحتى الموت إن اقتضى الأمر، ففي أحد مشاهد الرواية تذكر لنا الكاتبة كيف أن تعويضه نسيت في الليل أن ترفع اللحم من المطبخ - الذي كان معداً لضيوف السيد أمحمد الحاج الكبير - فأكلت القطط اللحم، وحينما علم السيد بالخبر:

"خرج من غرفته كالشيطان، تناول سوطه وتوجه به إلى المطبخ فرت من طريق السوط من استطاعت الفرار من الخادمت، ومن لم تستطع التصقت بالجدار كالسحالي، عدا تعويضه التي التقطتها يد السيد وهي تراجع إلى الزاوية شاهرة يديها في وجهه طالبة العفو...

- السماح يا سيدي السماح...

كان سالم يقترب من البيت والسوط يقترب أكثر من تعويضه، انهال عليها يابساً حاراً كافراً بالرحمة أو العفو. ارتفع صراخها حالاً وفرغ المطبخ من أي مدافع ... هرعت فاطمة من فراشها مذعورة حالما سمعت الصرخات ترتفع متبوعة باستغاثات استعطاف... (فطلبت فاطمة من أبيها التوقف قائلة:)

_ سألتك برسول الله يا أبي اتركها، ستموت، يكفي... إنها نافس.

غير أنّ رد الأب على ابنته كان عنيفاً، فقد دفعها عنه بقوة حتى تدرجت على الأرض قريباً من الباب وكشف عن وجهها:

_ إذهبي عني وإلا وضعتك فوقها.

... أخذ يجز الخادمة من شعرها إلى الحمام، وبجذبة قوية من يده انتزع حبل الغسيل ليربطها به هناك . بأنفاس متقطعة قال لاحباره التي تربض قريباً منه: هاتِ ابنتي بسرعة...
_ ها هو يا سيدي.

_ أدخله.

ورأته يربطُ تعويضه من يديها بالحبل في سقف الحمام... كان العرق ينزُّ منه والشتائم:

_ عندما تُعلّقين كالذبيحة ستذكركين ولن تنسي. هذه ليست المرة الأولى لك أيتها الكلبة.

ثم أغلق عليها وعلى طفلها باب السقيفة الصغيرة المؤدية إلى الحمام، واضعاً المفتاح في جيبه ومهدداً من يحاول مساعدتها بحشره معها.

هبط النهار سريعاً، كان يوماً سمته العدو، وكان على الخادמות العمل وكأنّ شيئاً لم يحدث لرفيقتين، رغم الألم والزلال الذي حدث صبيحة اليوم وغياب تعويضه عن المجموعة وخضوعها للعقاب... ساد الحزنُ بينهما وسيطر الوجوم، كنّ كالنمل يتحركن بلا أحاديث وبلا نكات وبلا أغنيات، عدا صوت تعويضه الباكي، يصلهنّ ترنيمه عبودية مرّة، كانت تبكي بحرقة وتتوجّع وتنادي دون مجيب. صغيها يصرخُ يريدُ الرضاعة، وهي معلقة من يديها تسمعه وتراه دون قدرة على افتكاكه من الجوع والظلم.

_ صغيري جائع، صغيري عطشان، أرجوكم فكّوا وثاقي فقط لأرضعه. الرحمة يا ناس" 26.

ففي هذا المشهد الطويل _ الذي اختزلناه من أربع صفحات _ أرادت الكاتبة أن تصوّر للقارئ ما يحدث للعبيد في بيت الأسياد، وكيف أنّ بيوتهم أصبحت جحيماً لا يُطاق بالنسبة للعبيد، فلا رحمة ولا إنسانية في هذا البيت مع العبيد، فبالإمكان أن ينقلب السيد في بيته شيطاناً على عبده يسومه سوء العذاب، كما فعل الحاج أمحمد الكبير مع تعويضه، لأجل خطأ صغير، إنّهُ الاستهتار والاستخفاف بأمر العبيد، دفع الحاج أمحمد الكبير إلى أن ينهال عليها بالسوط يابساً حاراً كافراً بالرحمة أو العفو، فلم توقفه الاستغاثات ولا الشفاعات بالمقدسات بل مضى ركباً رأسه في إذلال هذه الأمة الفقيرة التي لا حول لها ولا قوّة، والأدهى من ذلك إشراك الطفل الرضيع بالعقوبة والجبس، فكانت نتيجة هذا الظلم والتعدي أن ساد الحزنُ وسيطر الوجوم في هذا البيت الفسيح، فلا نكات ولا أغنيات، تسلي عن العمل الشاق والطويل، فقط هو صوت واحد مدوّي بين أرجاء البيت الكبير إنه صوت تعويضه الباكي التي كانت تبكي بحرقة وتنادي لا لأجلها بل لطفلها الرضيع الذي أوشك على الموت من الجوع والعطش دون أن يجيها أحد خوفاً من بطش سيد البيت الكبير!!

إن هذه الملفوظات التي وظّفتها الكاتبة في التعبير عن معاناة تعويضه وأمثالها في بيت الأسياد أدّت وظيفتها في التأثير على القارئ وإيصال رسالة مفادها أن بيت الأسياد كان مكاناً معادياً وأليماً للعبيد، فلم يجدوا الراحة والرحمة فيه مثلما وجدوه في بيوتهم هناك في الزرايب.

_ بيت بنات الله!

تعدُّ بيوت الدّعارة من الأماكن المعادية كذلك في رواية زرايب العبيد، فحينما بيعت تعويضه للفقي، قام هذا الفقي بحجزها في بيت من بيوت الدّعارة أو "بيت بنات باب الله" كما ورد في الرواية في إشارة إلى عدم وجود أهل أو أصل لهؤلاء الفتيات اللاوتي جيء بهنّ من أماكن مجهولة "عند سيدة تأتمر بأوامر الفقي، قال لها: احتفظي بها كأمانة ولا تستعملها، ونقدها مالا نظير إقامتها ثم اختفى. وضعت تعويضه في غرفة وضيعة من بيت كبير به عدة غرف تحت إدارة مشددة من أقوى الخادومات وأشرسهن، كانت تجلب لها الطعام دون أن تتحدث معها أو حتى تسالها عن سبب مجيئها في حال سيئة، وكانت ترغمها على شرب دنّ من المريسا وتقف عليها في الطعام والحمام وكأنها آلة لا إنسان، جامدة دون أحاسيس. عندما تسألها تعويضه: أين أنا؟" لا تجيبها. عندما تبكي تجبرها على السكوت. عندما تلومها وتعاتبها لأنها سوداء ولا تعين ابنة جلدتها، تصفعها على وجهها دون كلام وتعصّها. عصّتها مرة في كتفها وقرصتها قرصات دامية في فخذها. أدركت نوعية مكانها الجديد مما سمعته من قهقهات العاهرات وجلبتهن مع الزبائن، أدركت أنها انتهت إلى المكان الأسوأ في العالم".

27

تزايدت الأماكن المعادية لتعويضه _الشخصية الرئيسية في الرواية_ وهذه المرة في بيت من بيوت الدّعارة، حيث الغرف وضيعة والتعامل سيء إلى حدّ لا يتصوّر العقل، فلا رحمة ولا شفقة ولا إنسانية موجودة فيه، فقد نالت تعويضه من هذا المكان الكثير من العذاب الجسدي والنفسي الشيء الكثير "تصفعها على وجهها دون كلام وتعصّها" لا لشيء سوى أنها تريد أن تعرف أين هي، ولماذا جيء بها إلى هذا المكان. وبعد لأي من الزمن تدرك تعويضه أنها انتهت إلى المكان الأسوأ في العالم، و"الأسوأ" من أسماء التفضيل بمعنى أنه لا يوجد مكان سيء بعد هذا المكان، وهذا الكلام فيه إشارة إلى عظيم المعاناة التي لاقتها تعويضه ومن كانت على شاكلتها من الإماء من جرّاء تلك الأماكن وأهلها الذين بلغت بهم الفظاعة والبشاعة للدرجة التي تجعل الشيطان يقف حائراً منهم.

_ سوق العبيد

ويعدُّ سوق العبيد (أو سوق النخاسة) من بين الأماكن المعادية التي ورد ذكرها في الرواية، فقد أشارت الكاتبة إلى هذا المكان في أكثر من مشهد في روايتها، ففي أحد المشاهد تذكر أنه "جاء دلال العبيد يجزّ خلفه عدداً من الرقيق الصغار لعرضهم في ساحة السوق؛ كانوا عراة حفاة توشك عظامهم على تمزيق ما تبقى من جلودهم، طيلت أجسادهم بالزيت فأرسلت لمعاناً يغري الناظرين.

التقى عبيد قافلة جالو بعبيد قافلة من فزان ونظروا إلى بعضهم بعضاً كما لو أنهم يستمرون في علاقة قديمة. ودون شيء من المقارنة كان العبيد الذين جيء بهم من بعض البيوت البنغازية أفضل حالاً من هؤلاء ومن أولئك الذين قطعوا الصحراء مشياً على الأقدام ونالهم ضرب السياط وقلة الغذاء والكساء.

من البيت الحاج امحمد الكبير اقتيد العبيد الثلاثة إلى السوق وهم يعلمون وجهتهم التي تقررّت سريعاً. كان ثمة حزن على فراق مكانهم وما فيه. لزمّت تعويضه البكاء، فبالأمس القريب ودعت محمداً في ليلتهما الأخيرة ولا تدري اليوم إلى أي أرض تسير، وهل ستلتقيه من جديد أم أن كل شيء قد انتهى عند هذا الحد. لتشرع في رقبها الجديد بصعود منصة العرض شبه عارية.²⁸

بهذا المشهد الأليم والحزين أشارت الكاتبة إلى تلك الأسواق _ التي كانت ولا زالت تقام هنا وهناك _ لبيع العبيد، منهم الصغار العراة الحفاة الجياع، ومنهم الكبار الذين قطعوا الصحراء القاحلة المعروفة بطبيعتها وطقوسها القاسية_ وهي مكان معادٍ كذلك للعبيد في هذه الرواية_ وأحضروهم من بقاع شتى مشياً على الأقدام بعد ما أكل السوط من أجسادهم ما أكل، كي يجتمعوا في مكان واحد للبيع.

وفي هذا الجانب ندرك أن الكاتبة تريد من وراء ذكرها لأوصاف العبيد في سوق النخاسة، أن تذكر التفاصيل المعقدة التي تربط بين المكان والإنسان وهي علاقة غير حميمية، أي بمعنى آخر هي علاقة سلبية معادية. وثم تسليط الضوء على إظهار مدى قسوة المجتمع تجاه هؤلاء الزوج، الذين لا يعامل معهم مثل بقية البشر، وإنما ينظر إليهم مثل سلعة خالية من المشاعر والانفعالات الإنسانية، لأنهم محكومون بنظرات مستبدة.

في سوق النخاسة يتضح لنا أن العنف سمة المكان، وكان التعنيف بمختلف الأساليب يثير الرعب ويدمي القلوب، وفي كل مرة تسلب حقوقهم بشتى أنواعه.

لقد رسمت الكاتبة الروائية سوق نخاسة في مدينة بنغازي بليبيا وأظهرت أن العنف كان سمة المكان، وكان التعنيف بمختلف الأساليب منتشرأ أو متفشياً كما تُرسمُ تاريخ الرعب الذي كان يدمي قلوب أناس وجدوا أنفسهم ممتلكات وأشياء بيد آخرين.²⁹

أما النساء السوداوات فكان حالهنّ أسوأ بكثير من حال الرجال السود في تلك الأسواق؛ إذ كنّ يعرضن في تلك الأسواق "شبه عارية" غير مبالين بكرامتهنّ، ففي مشهد من مشاهد الرواية تذكر لنا الكاتبة كيف أنّ النساء السوداوات أصبحنّ ألعوبة بأيدي المارة الذين يتلصّسون كيفما يشتهون، فهذه إحدى النساء _ في الرواية _ حينما عرضت على المنصة على الفور: "تقدّم إليها بدويّ كان جالساً

على الأرض ينهش قطعة خبز بجانب حمارة، قبض ثديها وهو يعض الخبز بقوة تهزُّ شنبه الكثيف، هصر الثدي مرتين لغرض الشد وليس الشراء. كانت تدرك أنَّ معظمهم يفعل ذلك بقصد الشد فقط، فوجود الجواري في السوق متنفس لكل من يؤمّ السوق للفرجة. مسنٌ آخر كربه الرائحة تفحصها على مهلٍ بدقّة وتمعن وكشف الرداء عن عورتها لمساً، حام حولها كثيراً ظنته سيشتريها، إلا أنه عدل أو لم يكن راغباً في الشراء بقدر رغبته في اللمس ...³⁰

هكذا هي حال العبيدات في سوق النخاسة قبض، وهصر، وشدّ، وتفحص، وكشف، ولمس وكأهنّ في هذا المكان مندورون للبؤس والشقاء والإهانة، فلا أحد يبالي خلال المعاينة "بتلك الدفعة المنحدرة ببطء وتناقل على خديها"³¹، لأن الجميع منشغل بنزواته وشهواته دون الاكتراث بالإنسان الذي يُعاني أمامهم.

من خلال هذا المشهد ندركُ أن الكاتبة تريدُ من وراء ذكرها حال العبيد في سوق النخاسة، إظهار مدى قسوة الأغنياء وذوي البشرة البيضاء تجاه ذوي البشرة السوداء، الذين لا ذنب لهم سوى أنهم جُمعوا في مكان تحكمه العنصرية والطبقية المقيتة، حيث لا يعاملون معاملة إنسانية حسنة، وإنما كسلع خالية من المشاعر والانفعالات الإنسانية.

_ الصحراء

ومن الأماكن المعادية للعبيد في الرواية كذلك الصحراء، تلك البيئة القاسية، والطبيعة التي لا ترحم، حيث كل شيء يتلاشى بسرعة ويفنى، وفناء العبيد في الصحراء كان حينما "احتملوا المشي في الصحراء لأشهر طويلة، كان عليهم أن يقطعوها سيراً على الأقدام من بلادهم إلى بلاد التجار، ماتوا بسهولة لأنهم لم يقاوموا الجوع والعطش والعراء، التصقت أرواحهم بجلودهم وخرجت منهم مع تكرار الجلد لحثهم على السير نحو طرابلس. أه... إن طرابلس ليست قريبة الآخرة أقرب إليهم منها".

32

إنّ قسوة المكان مع قسوة البشر زادت من معاناة العبيد الذين كانوا يجبرون على قطع المسافات الطويلة في الصحراء مشياً على الأقدام، ولأنّ الجوع والعطش والعراء سمة الصحراء، كان التجار الجشعون يدفعون بالعبيد إلى آخرتهم بدلاً من إيصالهم إلى مدينة طرابلس _محطّتهم الأخيرة_، فالصحراء باتت آخرة العبيد، فيها مات الكثير منهم خاصة الأطفال، ففي مشهد مأساوي آخر تشير الكاتبة إلى قساوة الصحراء مع أطفال العبيد، فتقول:

" ظلت بوقا تبكي لأيام أطفالا في القافلة تقول إنهم تركوا يحتضرون في الصحراء وحدهم، بعد أن شاركوا في الحفر بحثا عن بئر ردمتها العواصف. كانت الطفلة تبكي شقيقها الذي احتضر قبل وصولهم للماء بلحظات، شاركهم الحفر والبحث عن البئر يديه الميتين وكان رجاءه أن يشرب، لكن القافلة مستعجلة وعليها ألا تتوقف، والغربان تحوم وتنقع في السماء وعليها أن تأكل. الغربان وجدت رزقها، الله يرزقها من حيث لا تحتسب هي الأخرى، وقد مشى الطفل من حوض نهر النيجر إلى تيبستي من أجل أن يكون طعاما ورزقا سائغا لها، وإلا ما الهدف من وجوده القصير؟" 33

مشهد حزين آخر توثقه الكاتبة على لسان بوقا التي كانت شاهدة وحاضرة على احتضار وموت الكثير من الأطفال في الصحراء الليلية، ومنهم أخوها الصغير، بحثاً عن الماء، مشهدٌ صوّرت فيه الكاتبة الجانب الإنساني المعدم عند من كان يتاجر بالبشر آنذاك وهم يرون أجزاء الإنسان تموت شيئاً فشيئاً من العطش والجوع والتعب، والأدهى من ذلك أنهم يتركون بعد ذلك في تلك الصحراء طعاماً ورزقاً للطيور الجارحة، إنها اللاإنسانية بأبشع صورها، فقد شابهت قساوة قلوب هؤلاء التجار قساوة الطبيعة التي كانوا يسرون عليها، فكانت النتيجة تلك الصور والمشاهد الأليمة التي كانت تستدعي الدعوات واللجوء إلى السماء عسى أن ترحمهم:

"كان آخر ما رآته السماء منهم لمعان عيونهم التائهة في أرواح تذوي وحيدة، فيا ليتها أمطرت وبلّلت ظمأهم قبل أن يرحلوا إلى ربّهم عطاشاً" 34

وقد أصابت قساوة الصحراء النساء كذلك، فقد ذكرت الكاتبة أنّه:

"ولقرون مديدة كانت القوافل تأتي بالإناث أكثر مما تأتي بالذكور، وكلهن صرن أم ولد ولكن دون أن تنتهي العبودية ويتحرر منها أحد، بل على العكس، انتشر البغاء وأطفال لمواخير الذين يرمون في الشوارع ويوضعون على عتبات المساجد". 35

ففي أحد مشاهد الرواية تصوّر لنا الكاتبة رحلة الأنين في الصحارى، والسوط الذي يجلدُ ظهور فتيات صغيرات، وحراس القوافل الذين يخلون بقطرة ماء على العبيد ويتركونهم ليموتوا ظمأى وسط رمال ملهبة، تقول الكاتبة في بداية أحد فصول روايتها:

"أعط المرأة ماء... إنها تستغيث.

قال "سينا" حامل سوط القافلة، للمهاريستي، لكنّ المهاريستي* تجبر ولم يبال بالنداء. تزايد أنين المرأة، سمعها حامل السوط، فخشي أن تموت وقد أوشكوا على بلوغ مرزق. قال للمهاريستي: _ ستموت عطشا... أعطها رشفة.

رد المهارستي:

_ لن أعطي قطرتي الأخيرة لأحد، عليها أن تتحمل، الماء في الصحراء ثمين، واللعب أثمن من الذهب. قد أعطيتها لعابي إن شئت". 36

إنّ الصحراء هي بحدّ ذاتها مؤذية للإنسان لمجرّد وجوده فيها، فما بالك إن قطع الشراب والطعام عنه، كيف يكون حاله؟!، هذا ما كانت تقوم به القوافل التي تتاجر بالعبيد، فالمرأة البريئة التي سلبوا منها كل شيء والتي أشرفت على الموت لم تشفع لها استغاثاتها ووصولها إلى مرحلة الموت، في الحصول على قطرات من الماء تروي بها ضمأها من هؤلاء التجار الذي لا يعنهم شيء سوى منافعتهم المادّية، حقاً إنه مشهد يثيرُ الفزع ويجرح القلب ويدمع العين.

يتبين لنا أن المكان كان له دور كبير في رواية زرايب العبيد، وأن الكاتبة اعتمدت عليه كتقنية سردية مهمة في الإشارة إلى الكثير من الأحداث والمشاهد التي كانت تقام هنا وهناك في داخل رواية زرايب العبيد، فكما كانت هناك أماكن للفرح والأنس للعبيد، كانت هناك أماكن للحزن والشقاء لهم أيضاً. وبذلك نستطيع القول، بأنه لا وجود للمكان الموضوعي - في عالم الرواية - ففي النهاية ما هو إلّا مكان منظور إليه بعين الذات التي تتوحد فيه، فتدركه إدراكاً بسيطاً أو معقداً، تكنّ له الحب أو البغض، ترتاح له أو تفزع منه، ذلك أن: "المكان الذي يعيش فيه البشر مكان ثقافي، أي أن الإنسان يحوّل معطيات الواقع المحسوس وينظمها، لا من خلال توظيفها المادي لسد حاجاته المعيشية فقط، بل من خلال إعطائها دلالة وقيمة" 37

الخاتمة:

- حمل المكان في رواية زرايب العبيد إشارات تتجلى من خلالها أبعاد الحياة في ليبيا في مرحلة من مراحل نشوئها.
- أشارت نجوى بن شتوان من خلال الرواية إلى العديد من القضايا الإنسانية والإجتماعية كال فقر والتشرد والتمييز العنصري، وقد تجسّد ذلك من خلال الأمكنة التي احتوت أحداث الرواية.
- لعب المكان في رواية زرايب العبيد دور المفجّر لطاقت المبدع، حيث أسهم في تحريك شُخص الرواية بما يتلاءم مع المكان والزمان، فكان المكان تعبيراً عن مقاصد المبدع.

- في الرواية ثمة أماكن للعبيد أشارت إليها الكاتبة وسمت بالأليفة كالزرايب والبيوت والبحر، في المقابل اتسمت أماكن الأسياد والبيض مع سوق العبيد وبيوت الملاهي بالمعاداة وكبت الحريات.
- من الأماكن المعادية التي أشارت إليها الكاتبة الصحراء، حيث كانت مسرحاً لمآسي ومعاناة العبيد الذين كانوا يجبرون على قطع المسافات الطويلة في الصحراء مشياً على الأقدام، ولأنّ الجوع والعطش والعراء سمة الصحراء، كان التجّار الجشعون يدفعون بالعبيد إلى آخرتهم بدلاً من إيصالهم إلى مبتغاهم.
- تبين لنا من خلال قراءتنا لرواية زرايب العبيد أنّ الأماكن المعادية التي أشارت إليها الكاتبة أكثر من الأماكن الأليفة، فهذه الرواية عمل سردي يحتفي بالمهمشين والمندورين للْبُؤْس والشقاء.

الإحالات:

- 1- التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي: 248.
- 2- ينظر: تداوليات المكان في أسريات المعتمد بن عباد: عائشة عويسات (جامعة الوادي) وأ.د. أحمد بلخضر (جامعة ورقلة)، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد التاسع، 2016م: ص 266
- 3- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: محمود أحمد نحلة: ص 21.
- 4- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري: 84.
- 5- ينظر: مقدمة إلى علم الدلالة الألسني: هريبرت بركلي: 43
- 6- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ص 54
- 7- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ص 17، 26
- 8- تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري: 627/2.
- 9- رواية "زرايب العبيد" ... سطوة القذارة والهوان، نداء أبو علي، نت.
- 10- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا: ص 39-40، 11- جماليات المكان: ص 105-106
- 12- زرايب العبيد: ص 106، 13- زرايب العبيد: ص 171، 14- زرايب العبيد: ص 315، 316
- 15- البرّاقة: بيت مصنوع من اللوح أو القصدير ونحوهما، 16- زرايب العبيد: ص 7، 17- زرايب العبيد: ص 14، 18-
- نظريّة الأدب، رينيه ويليك، وأوسن وارن، ترجمة: معي الدين صبحي: 288.
- 19- زرايب العبيد: ص 25، 20- زرايب العبيد: ص 25، 21- زرايب العبيد: ص 343، 22- زرايب العبيد: ص 344، 23- زرايب العبيد: ص 78، ودلالة: البطيخ الأحمر نبات من فصيلة القرعيات، ثمرته كبيرة الحجم لها غطاء أخضر سميك، حمراء اللب، لذيذة الطعم، يدخلها بدور سوداء اللون، أو ذات بقع.
- 24- ينظر: المصطلح السرد في النقد الأدبي العربي الحديث: أحمد رحيم كريم الخفاجي، ص 426

- ²⁵- زرايب العبيد: 206، ²⁶- زرايب العبيد: 252، 253، 254، 255، ²⁷- زرايب العبيد: 286، ²⁸- زرايب العبيد: 235-236، ²⁹- ينظر: زرايب العبيد نجوى بن شتوان.. سوق النخاسة العنيف، هيثم حسين، جريدة المُنذ www.almodon.com، ³⁰- زرايب العبيد: 236، ³¹- زرايب العبيد: 236، ³²- زرايب العبيد: 139، ³³- زرايب العبيد: 139، ³⁴- زرايب العبيد: 139، ³⁵- زرايب العبيد: ص
- ³⁶- زرايب العبيد: ص 142 (المهاريستي): راكب جمال المهاري من فرسان الطوارق: زرايب العبيد: ص 142
- ³⁷- مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة ألف، البلاغة المقارنة، ع 6، 1986، ص 48

المصادر:

- استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2004.
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط، 2002م
- تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (ت: 393هـ)، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1979.
- تداوليات المكان في أسريات المعتمد بن عباد، أعائشة عويسات (جامعة الوادي) وأ.د. أحمد بلخضر (جامعة ورقلة)، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد التاسع، 2016م.
- التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، دار العربية للكتاب، ط2، ليبيا، 1986.
- جماليات المكان: غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 1984م
- رواية زرايب العبيد، نجوى بن شتوان، دار الساق، بيروت، لبنان، ط2، 2017.
- رواية "زرايب العبيد" ... سطوة القذارة والهوان، نداء أبو علي، www.aawsat.com
- زرايب العبيد نجوى بن شتوان .. سوق النخاسة العنيف، هيثم حسين، جريدة المُنذ www.almodon.com
- مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، هريبرت بركلي، ترجمة: د. قاسم مقداد، دار نينوى، سوريا، 2013.
- المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث، أحمد رحيم كريم الخفاجي، دار صفاء، ط1، عمان، 2012.
- مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة ألف، البلاغة المقارنة، ع 6، 1986.
- نظرية الأدب، رينيه ويليك، وأوستن وارن، ترجمة: معي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مصر، 1972.